النهار

الثلاثاء 09 شباط 2010 - السنة 77 - العدد 23955

عن كتاب أحمد بيضون: "رياض الصلح في زمانه"
ننتظر هذه السيرة... بفارغ الصبر
بقلم فارس ساسين

عندما اغتيل رياض الصلح، أحد مؤسّسَي الاستقلال في لبنان، في عمان في 16 آب 1951، كان عمره أقل من ستين عاماً: 57 عاماً بحسب كاتب سيرته... لأن ثمة لغزاً يحفّ بتاريخ مولده (إذ ذُكرت كل الأعوام بين 1890 و1898)، تماماً كما يحفّ بالمكان الذي ولد فيه (بيروت، صيدا، صور)، وكذلك بالمدارس التي تلقّى فيها تحصيله العلمي... ومع ذلك، كم من القرون قطع هذا الرجل في حياة قصيرة جداً، هو الذي كان يلقي أمام النواب في أعوامه الأخيرة خطاباً حكيماً صقلته "السنّ" و"التجارب". الصلح الذي ناضل في الأوساط السياسية والأدبية في اسطنبول خلال دراسته الحقوق بين 1910 و1913، وكتب مقالات تدعو إلى الإصلاح في صحافة بيروت بعد ذلك بوقت قصير، حُكِم عليه بالنفي مع والده في حكم صدر عن الديوان العرفي في عاليه خلال الحرب العالمية وكاد يودي بهما إلى حبل المشنقة. ثم ها هو في خريف 1918 على رأس حكومة صيدا العربية، ثم نائباً عن المدينة نفسها في المؤتمر السوري في دمشق عام 1919، حيث كان مناصراً لفيصل ويؤدّي دور الوسيط بين السلطات الدمشقية وأعضاء مجلس إدارة جبل لبنان المناهضين للنفوذ الفرنسي. طوال فترة الانتداب، لم يكف رياض الصلح، من خلال الأحكام التي صدرت بحقه (وأحدها حكم بالإعدام في آب 1920) والنفي والأسفار والمشاركة الناشطة في الحياة السياسية ودعم النضالات المطلبية ونسج صداقات من باريس إلى القدس ناهيك عن القاهرة وبغداد – لم يكف إذاً عن النضال من أجل الاستقلال السوري أولاً، واللبناني بعد ذلك، فكان دائم الحضور ويتحلّى بدينامية استثنائية.

يحتل كل ما تقدّم أقل من ثلث السيرة الموسعة التي خصّصها أحمد بيضون لرياض الصلح وجاءت ثمرة أبحاث امتدّت لسنوات طويلة، فالعدد الأكبر من الصفحات يغوص بدقة في عقد الاستقلال، في ما سُمّي "تنظيم" الاستقلال (بناء المؤسسات)، وفي ما يمكن تسميته لاتنظيمه (1941-1951). وقبل صدور الكتاب، كتب حازم صاغية وهو مثلنا من القلائل الذين اطّلعوا على مخطوطته، مقالاً متحمّساً عنه في صحيفة "الحياة" أشار فيه إلى ما بين بطل السيرة ومؤلفها وجيل من أبناء اليوم من تآلف بيّن.

تُقسَم صفحات الكتاب إلى عمودَين مستقلَّين وغير متساويين، الأول مخصص لـ"السياق" الذي "حدّد التكوين السياسي للشخص واستدعى الدور الذي اضطلع به"، في حين يكشف العمود الأعرض الوقائع والأحداث الأساسية في حياة رياض الصلح لرسم خطوط موقفه ومساره في خضم عصره وجيله.

من خلال تبحّر لا ثغرة فيه في حقبات كثيرة لم تخرج بعد من الظل، وبلغة عربية أكثر سهولة مما اعتدناه من الكاتب، ولكنها ذات نقاوة كلاسيكية تؤالف الحداثة، لا يكف بيضون عن التذرّع بتعدّد الروايات ليجد إيقاعاً روائياً بطيئاً وشبه بوليسي، فيجزم بوضوح في الختام، أو يترك السؤال معلّقاً. وهكذا نطّلع على سلسلة من الأحداث في تاريخ لبنان المعاصر (انتخابات 1943، تجديد ولاية بشارة الخوري، حرب فلسطين، انقلاب الحزب السوري القومي الاجتماعي، دعوة رياض إلى الأردن ثم الاغتيال وتداعياته...) تتميّز كلها بإضافة عناصر غير منتشرة أو غير معروفة على الإطلاق، وإدراجها في خلاصات متقنة.

لكن تعدّد اللوحات لا يفضي إلى إبعاد الشخصية الأساسية عن الصدارة، وإنما يهدف على العكس إلى كشف المفارقات الكثيرة فيها، وعلى صعيد أعمق، إلى وحدة مسارها وجهادها (وهذا هو الاسم الذي

كان يطلق على النضال في تلك الأيام): " فهو أوّلاً رجل مفاوضة وتعاقد. إذ نراه مكرّساً معظم جهوده، بين الحربين، لإرساء الاستقلال الوطنيّ في دستور وفي معاهدة. وهو من أرباب المرونة واجتراح المخارج، لا في التفاصيل الخلافيّة وحدها، بل في ترتيب الأولويّات العامّة أيضاً. وآية ذلك تصوّره الذي أقام عليه العلاقة بين الاستقلال والوحدة، إذ قدّم الأوّل على الثانية وجعل الأخيرة رهناً بالاقتناع المتحصّل من اتّضاح المصلحة الجامعة". لم تولَد فكرة استقلال لبنان لدى الصلح عام 1943، بل راودته عام 1920 ثم عام 1928. لكنها لم تؤدِّ في أية لحظة على الإطلاق إلى محو فكرة المساواة بين المواطنين في الجمهورية الجديدة. إنها مرونة إذاً، لكنها في خدمة مثل عليا يعاد تأكيدها باستمرار.
أثبت رياض الصلح نفسه، منذ مسؤولياته الأولى (صيدا 1918)، رجلاً يتقدم دائماً بجردات حساب. فقد اكتشف باكراً جداً أهمية الرأي العام، وبنى مع صانعيه (ولا سيما الصحافيين) علاقات صداقة. ولم يكن يسع كاتب سيرته إلا أن يقتدي به فيعرض في خاتمة بعنوان "ما تبقّى لنا" جردة حساب عن الرجل وعن عبوره في السلطة. من الصعب الإحاطة بمختلف جوانب الموضوع إلى هذه الدرجة، وإعطاء شخصية الصلح هذا القدر من حقها، وتفكيك جاذبيته الأكيدة وبناؤها من جديد على مبررات ومسوغات إلى هذا الحد.
لنا الحق في أن ننتظر بفارغ الصبر صدور هذه السيرة.

(•) "رياض الصلح في زمانه" - مجلدان - 722 صفحة - لم يطبع بعد.

(أستاذ جامعي - كتب النص بالفرنسية وترجمته نسرين ناضر.)

جميع الحقوق محفوظة – © جريدة النهار 2010